والا فلو وهبت كل قنية ثمينة نفسا تريد هذا المالك ولا تريد ذاك فماذا يبقى من الأثمان ؟ وماذا يبقى من البيع والشراء ؟

هذا القصر يبذل نفسه لمن يريده بغير ثمن ، ويأبى أن يأوى إليه شار غيره ولو بذل فيه ألوف الألوف ؛ فهو تارة بدرهم وتارة بالألوف المؤلفة من الدنانير ، وهو تارة أخرى بالمجان لمن لا يسومه حتى بهذا الثمن الرخيص

إن دلّ هذا على شيء فانما يدل على أن الشعور هو « وحدة » التقويم والتسويم فى كل ما تملك وما تريد ، وأن الذين يشبعون من الحياة هم أغنى الناس وأعظم أصحاب الثراء ، وان لم يعرف لهم اسم فى خزانات المصارف ودفاتر الشركات

أنت يابنية ذخيرة في الحياة

أنت يابنية كنز من الفتنة والحب والمتعة واللذائذ والآمال والأشجان والأحلام . .

أنت يابنية تنطار ترخص عنده قناطير الذهب والفضة وقناطير الجواهر والفصوص

أنت كل هذا حتى يأخذ منك الشعور ما اعطاك الشعور . وسألت من خلقك هذا الخلق السوى الا يأخذ منك إلا بمقدار ما يعطيك ، وألا يرغّبك إلا بمقدار ما يرغب فيك ، فليس آلم من هوان النفيس عند الصيرفى العليم بالحياة إلا نفاسة المين الزهيد

أنت يابنية هكذا فى لغة الزمان الذى لا نسمع فيه إلا « كم نقصت فلانة » وكم زاد فلان ؟ وكم يساوى هـذا وتلك فى أسعار الأوان ؟

وعلى مقربة من « مثابة » الأسكندرية ما أشبه هـذه اللغة بأسلوب المكان !

***

على شاطئ الأسكندرية ثروة لمن أحب الغنى

ثروة لم يملكها قارون عند من يحسب موارده بحساب الحياة

وكل ما تتقاضاك من جهد بضع نظرات

عباس محمود العقاد

بين الشرق والغرب

رد على رد

للأستاذ فليكس فارس

(تتمة ما نشر فى العدد الماضى)

أى صديقى أدهم إن الغرب لا يرتقص على براكين من النار إلا لحفره مثل هذه الآيات القاتلات على ألواحه . . .

إن صاحبك هابل الكاتب الذكى الذى قام بدور له شأنه فى عالم الأدب لا يقصد الجدّ فيما يقول ، بل هو يتهكم تهكماً ويقول للناس : إن العقلية الشرقية تلائم الحياة الباقية ، « فاذا » انتقلتم إلى الأخرى فهنالك اتبعوا وحى هذه العقلية !

إن « إذا » لا تفيد الظرفية هنا بل تفيد شرطاً ممتنعاً وما هى إلاّ أداة تحدٍّ صريح وإنكار مطلق لكل ما لا يقع تحت الحواس الخمس ، فكأنك أيها الناظر الكريم وأنت تدعونا إلى اقتباس العقلية الغربية ، تهيب بنامع صديقك هابل آدم إلى الاعتقاد بالعدم قبل الحياة وبعد الحياة . فهل يجاريك علماء الغرب الذى نباهى بحضارته ؟ هل يوافقك من يدعون أهل الشرق معك إلى الاتجاه نحو الحضارة الغربية فى القول بأن هذه الحضارة الآرية لم تصل إلى ما وصلت إليه إلاّ عن طريق الإلحاد ؟

إن حضارة الأقوام التى ترغب إلينا أن نقتبسها إنما بُنيت فى تاريخها القديم كما بنيت فى تاريخها الحديث على الاعتقاد بحياة أخرى . وما تدعوه « منطق الغرب الإثباتى » الذى ورثه الرومان عن الإغريق هذا المنطق الذى تنكره على العرب لأنهم ذوو استلهام ولأنهم يؤمنون بالغيب ويوحّدون علة الوجود ، إنما هو منطق نشأ فى ذهنية فلاسفة كانوا يؤمنون « بأولمب » يغصّ بالآلهة ذكوراً وإناثاً ؛ تلك كانت حضارة الغرب القديمة لم تقتل المنطقَ فيها حتى عبادة الأوثان ولكنها لم تكن إلاّ حضارة غاشمة شطرت فيها الانسانية إلى شطرين : الانسانية المتنعّمة . والانسانية التى تعرق دماً تحت لسعات السياط

أما حضارة أوروبا الحديثة فقد قامت على ما تعلم بتعاليم عيسى ،

وإذا كان قد بقى فيها شيء من الرحمة فهى من آثار موعظة هذا الناصرى على جبل من جبال الشرق . وإذا كان قد هبّ فيها بعد انتصار شارل مارتل من دعوا إلى إصلاح المسيحية فما كان صوت هؤلاء المصلحين إلاّ صدىً للصوت الذى دوى فى صحراء العرب منذ ثلاثة عشر قرناً . . .

إن الإيمان الشرقى الذى يدعوه المناظر نسكاً أسيوياً لم يحُل إذاً دون سير الغرب على سبيل الاكتشاف والاختراع، وما منع باستور إيمانه وتدينه من اكتشاف الجراثيم وإيجاد أمصالها لانقاذ الانسانية من أفظع أدوائها . وما كان أديسون وماركونى ومن تقدمهما من المخترعين إلاّ من المؤمنين بالله وباليوم الأخير

إن الدكتور أدهم يريد أن يميز بين عقلية الشرقي وعقلية الغربى فيقول إن الأولى مستسلمة « محضاً » للقضاء والقدر تخضع للغيب، والثانية تناضل نضالاً « محضاً » ضد الغيب.

أما أن يكون الشرق هذا المستسلم الضعيف فما يكذبه التاريخ ، تاريخ المسيحية وتاريخ الاسلام على السواء ، فما كان المسيحيون الأولون ليجبنوا حتى بين أشداق الأسود ، وما كان المسلمون إلا مجاهدين بالجهادين، توكلوا فما توا كلوا وسلموا أمرهم لله فاستسلموا لزعازع الحياة بل أرغموها إرغاما ليسيطروا عليها بمكارم الأخلاق .

أما قول المناظر بأن العقلية الغربية تناضل ضد الغيب فقول فيه جنوح فى التعبير ، ولا نُعتقد أن الدكتور أدهم يقصد الغيب بل أسرار المادة وما يكمن فيها من تفاعل، لأن الغرب إنما هو من هذه الأنسانية التى حُدت قواها فوقفت واجمة أمام نظام الكون وسرّ الحياة والموت ، وما نعلم أن العمل على درس خفايا المادة كان وقفاً على الغرب دون سواه، وقد رأينا العرب يذهبون إلى أبعد الأشواط فى هذا السبيل .

هذا وان الحضارات قد توالت على هذه الغبراء فكان لكل أمة دورها فى الاعتلاء والانحطاط ، فما تراث الذهنية العلمية إلا مشاع لكل رأس فيه دماغ يفكر لاستخدام عناصر الطبيعة لمنفعته.

ليس هنالك إذاً عقلان عقلٌ للغرب وعقلٌ للشرق فى ميادين الاستقراء؛ غير أن هنالك فطرة أو ثقافة تختلف بين شعب وشعب. وقد أراد المناظر أن ينكر استقلال الثقافة الأدبية عن العلم الوضعى فاسماها روحاً كأنه يمحو أثرها باستبدال اسمها .

لتكن الثقافة روحاً كما يريد الدكتور أدهم ، فلماذا يطلب حضرته أن يلفظ أبناءُ الشرق روحهم لتتقمص روح الغرب حضارتهم ؟

ثم أليس من غرائب المنطق أن يقول المناظر بفرعونية مصر ويتمردها على العروبة نيفاً وثلاثة عشر قرناً ثم يطلب منها أن تتفرنج بين عشية وضحاها ؟

إذا كان ما يرمى إليه الدكتور أدهم من تفرنج مصر دفعها إلى طريق الرقى العمرانى فقد أثبتنا له أن مصر كسائر البلاد العربية تأخذ بالحكمة السامية: « أطلبوا العلم ولو فى الصين » فلا تأنف من الأخذ بعلوم أوروبا الوضعية كما أخذ أجدادنا بعلوم الاغريق من قبل دون أن « يستغرقوا » فعلام يراد منا أن «نستغرب» نحن ؟ ...

ما هى الفائدة التى يرجوها المناظر لمصر إذا هى أنكرت إيمانها وأفسدت ألسنتها وتغنت على الأنغام الافرنجية التى تتنافر مع ذوقها وحتى مع مخارج ألفاظها ، ورقّصت أبناءها وبناتها متفاخذين متباطنين متناهدين ؟ ...

أية فائدة نرجوها لمجتمعنا إذا نحن أعرضنا عن الأخذ بحضارة ثوت مبادئها العليا فى سرائرنا لنصبح كالقردة مقلدين نتحرك تبعاً لحوافز غيرنا ؟

وأخيراً لا يظنن مفكرٌ أننا نقصد بالحضارة العربية هذه الحالة الراهنة التى أوصلتنا إليها قرون من الويلات والعبودية أرهقتنا حتى تنكرت لنا أنفسنا

لقد طغت على مجتمعنا فى معتقداته وفى نظم أسرته وفى آدابه وفى حكوماته دخيلات من متخلفات جميع العصور وجميع الأمم ، فنحن اليوم أشبه بنبيل أخنى عليه الدهر فأجاعه ، فهو يأكل من فضلات موائد الأمم ، ومزّق ثوبه فهو يستر عورته بترقيعه ملتقطاً له الخرق أمام كل بيت غريب ، ومن كل مزبلة تعترض طريقه .

أما والله ما يُهيب بنا إلى الدعوة لإقامة حضارة عربية شرقية بهذه الأوطان إلاّ الاشمئزاز يستذرف الدمع لما يصدم سريرتنا كل يوم من هذه المساخر تتمشى وهى لا تبالى على قبور الأجداد وعلى مهود الأطفال

وقد يكون هذا النفور نفسه مايدفع بالمفكرين الأجانب حتي وبعدد من مفكرى العرب أنفسهم إلى الإهابة بالشرق للنهوض من كبوته ليستبدل بروحه الراقدة روحاً غربية ناهضة

إنها لعاطفة قد يكون الألم والاشفاق مصدريها ، ولكن العربي الأصيل بما يسمع فى أجواء نفسه من هتاف القبور لايقطع الرجاء من حقه في الحياة

لقد ذهبت الطوائف الدينية كل من جهتها مذاهب جد غريبة عن روح الدين الذي أثار الدنيا من مشارقها حتى أصبح من الأسهل عليها أن تعتنق الإلحاد من أن تقضى على تعصبها وتطرح التآويل التى تقضى على اتحادها على الأقل فى إقامة حضارة تكفل حياتها

لقد تبلبلت النظم الاجتماعية بيننا إلى درجة يسهل على شعوبنا فيها أن تُنزع فطرتها الأصلية المريضة فى تيارات مدنية الغرب من أن تستفيد منها قوتها وتعمل على شفائها

إن الاندفاع إلى الأغوار أسهل على المتعب من العودة إلى تسلق الذرى التى انزلق عنها

ولكن أترضى النفوس العربية النابهة التى لا تجهل ما يكمن في هذه البلاد من قوى أن تتخير الجمود فلا تقوم بواجبها لتحول دون انتحار شعب بزغت أنوار الهداية من آفاقه وبقيت حضارته مدى أربعين قرناً محوراً لتيارات التفكير فى العالم ؟

لتكتب الأقلام العربية فى هذا المطلب ، لتملأ الصحف السيارة بالآراء، وليتناقش المفكرون

إن كل أمة قد مرّت على مفرق الطرق قبلنا لم يتأخر مفكروها عن وضع الكتب الضخمة فالتهمها الشعب الحائر التهاماً ، أما هنا فمن العبث أن تعقد الفصول الطوال فى كتب عناوينها نفسها تنفر جمهور القراء منها

لقد نشرت في العام المنصرم كتاباً بعنوان « رسالة المنبر إلى الشرق العربى » فاستنفد نصف نسخه فى بلاد المهاجر حيث يعرف النازحون قيمة الوطن، وحيث يشعرون بغربتهم فى حضارات ليسوا منها وليست منهم. أما هنا فى الأقطار العربية فلم يقرأ كتابى إلا أربعمائة قارئ أهديتهم إياه وتلثهم أو أكثر لم يتفضل بإرسال بطاقة أعرف منها وصول الكتاب إليه

إن معظم القراء يهتمون للمشاكل الراهنة الجوالة من الأمور السياسية والادارية التى تؤثر فى حياتهم فى يومهم ، فنحن نعيش لعصرنا كأننا لا نترك على أرض الشرق أبناءنا وأحفادنا

لقد تناولت فى رسالة المنبر بحث ما نحن عليه الآن وما يجب أن نأخذ به من حضارة تتوافق وسرائرنا وأحوالنا ، فان أنا أردت استيفاء موضوعي الآن حقه اضطررت أن أنشر كتابى برمته على صفحات الرسالة . فلأكتفين الآن بإيراد فقرة من مقدمته أجعلها ختاماً لهذا الرد [1]

« إنني ما زلت معتقداً منذ قدر لى أن اعتلى المنابر أن هذه البلاد العربية مستودع لأشرف الثقافات ومكمن لأسمى المواهب، وإن من واجب اجناد المنابر والأقلام فيها إظهار هذه القوات لأبنائها نزوعاً بهم عن الانقياد لدخيلات العادات والأخلاق التى تغلّبت عليهم بما أوجدوه من التوهم فى أنفسهم فاستصغروها .

إن كلاً من سلالات العالم تنتفض الآن لتنبه ما يكمن فى قومياتها من حوافز وهى تناوئ قوميتنا الساميّة منزلتها منزلة تنحط عن مراتب الشعوب الآرية . فالأقوام المنتشرة فى جزيرة العرب وفلسطين وسوريا ولبنان ووادى الفرات ووادى النيل وعلى الشواطئ الشرقية للبحر المتوسط وشواطئ البحر الأحمر تدمغها حضارات الغرب والعالم الجديد بطابع التواكل والخمول، فى حين أن القومية فى الشرق العربى لا تقف تجاه السلالات المتكمشة على ذاتها فى العالم موقف كتلة تبغى وحدتها على الميزات الجسمية مفتشة عن الوحدة فى الأنساب والعروق بل هي تبغيها على الميزات الروحية فى حوافز أصبحت فطرة لكل سلالة قديمة توطنت هذه البلاد التى خشع عظماء العالم تحت سمائها الصافية وفوق أرضها المطهرة بدماء الشهداء من أجل الأخاء الانسانى والحق المطلق . فاذا ما افتخرت قوميات الدنيا بالعرق ، فاننا نحن نباهى بالفكرة الحية السماوية التى أقامت من شتاتنا أسرة واحدة كلمة التعارف بينها اسم الواحد الأحد رب العالمين »

فيكتور فارس

(١) أرجو سيدى الأستاذ الكبير صاحب الرسالة أن يتفضل باستيداع مائة نسخة من رسالة المنبر توزع بمعرفته مجانا لمن يهمهم من قراء رسالته الاطلاع على ما دونته فى كتابى عن قضية الشرق والغرب .